

الواقع الوجودي المسيحيّ في لبنان  
في مطلع الألف الثالث للميلاد

أنطوان نجم

لننتقل من العنوان، ولنتمعن باللفظة المعبرة عن الفكرة – المفتاح فيه: إنها لفظة "الوجودي".

لنلاحظ أن النية لا ترمي، حتى مداورة، إلى قضايا مثل الإنماء أو السلطة السياسية أو العجز المالي أو الوظائف، وما سوى ذلك من أمور ملحة وأساسية، على مستوياتها، بل ذهبت مباشرة تطرح مسألة الوجود بالذات. ومسألة الوجود هي آخر معقل للكائن.

يمكن أن تتقلص طلبات الإنسان واحتياجاته حتى تصل إلى أن بما دونها يبطل الإنسان أن يبقى حيا. ليتخيل أحدنا أنه وقع في سلسلة من الظروف السلبية والمآسي ذات نتائج وجودية خطيرة، فهو سيقفص احتياجاته إلى حدّ أن ما دونها يودي به إلى الموت.

فعندما تصل بنا الأمور إلى المدى الذي يدفعنا إلى طرح مسألة الوجود، نكون قد وصلنا إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه همّ. إنها الحال الأدنى التي ما بعدها أدنى. فهل وصلنا إلى هذه الحال لنطرح، بالتالي، مسألة وجودنا وبقائنا؟

ومن جهة أخرى، لا بدّ من التحديد بدقّة أيّ وجود مطروح. هل هو الوجود الجسدي؟ الأمر ممكن، نظريا. أما عمليا، فما عادت الإبادة الجماعية أمرا سهلا. لذا ينبغي أن نستبعدا كليّا.

ماذا نعني، إذا، بالوجود؟

نعني به وجودنا جماعة مسيحية.

وعلى أيّ وجود مسيحيّ نتكلم؟

هل هو الوجود الميحيّ الجمودي، الذمّي، الباهت، المتعيّش، المكتفي بالأكل والشرب والنوم والتزاوج وجمع المال؟ أم هو الوجود المسيحيّ الدينامي، الحر، الحي، الفاعل، المتساوي مساواة تامة في الحقوق والواجبات كلها ووجود أي جماعة دينية أخرى؟

أقصد، طبعاً، هذا الوجود المسيحيّ، لا ذلك.

فأيا كانت فاعلية الوجود القبطي في مصر، لا تقارن بالقضم اليومي الذي يتعرّض له هذا الوجود. فالمعلومات المحققة تشير إلى العدد السنوي الضخم المرعب من الأقباط الذين يهاجرون أو يشهرون إسلامهم. ويكتفي الباقون منهم في وطنهم بالحياة على الهامش في مجتمع غلبته مسلمة، ذميّن صاغرين. وهذا القول عن الوجود المسيحيّ بنطبق أيضا على تركيا وإيران فضلا عن بلدان المشرق الأخرى.

فالكلام عن "الواقع الوجوديّ المسيحيّ" الذي نعنيه هو، إذا، الواقع الوجودي الدينامي الحرّ، المتساوي مساواة تامة في الحقوق والواجبات كلها والواقع الوجودي لأيّ جماعة دينية أخرى.

بعد هذا الايضاح، أصل إلى السؤال الأساسي المباشر: هل من مبررّ لطرح مسألة "الواقع الوجوديّ المسيحيّ"؟

غير قليل من المسيحيين في مراكز القيادة الرسمية والشعبية وفي الأحزاب غير الكيانية (أي التي لا تؤمن باستمرارية الكيان اللبناني القائم ونهائيتها) ينكرون

بقوة وجود مشكلة بالنسبة إلى المسيحيين. ويعتبرون أن ما يسمّى مشكلة هو "وهم" خلقه الإكليروس الماروني والرئيس إميل إدّه وتعهّده ورعاها آل الجميل وآل شمعون وسمير جعجع ومن لفّ لفهم بغية استثماره لمآربهم الشخصية على غير صعيد. ولكم التقيت مثل أولئك في درب حياتي النضالية الوطنية التي تقترب من نصف قرن. وقد ألموني كثيرا.

وتميّز الرسميون المسيحيون في السنوات القريبة الماضية بالاصرار نظريا وعمليا على إنكار وجود المشكلة، وتصرفوا بموجبه، فكان ما كان من انضمام لبنان إلى الأليسكو<sup>1</sup> ومرسوم التجنيس السيء الذكر، ونتائج الانتخابات النيابية واختلال التوازن الطوائفي التعبيري.

ويبدو أن الأيام الطالعة ستستمر في هذا التوجه، وستتميّز بالتعمّق فيه لتصل إلى مشروع لإلغاء النظام الطائفي السياسي، ممّا يدمّر التوازن كليا. فمشكلة المشاكل أن ينكر وجود المشكلة من يفترض فيهم أنهم قيّمون على مقدّرات المسيحيين وعلى مصيرهم.

أما أنا فأجيب على السؤال بالإيجاب: يوجد غير مبرّر لطرح مسألة "الواقع الوجودي المسيحي". وبراھيني أستقيها من التاريخ ومن الأحداث المعاصرة.

يدفعنا التاريخ إلى التساؤل: أين هم مسيحيو المشرق، وقد كان برمتهم مسيحيًا؟ إن عددهم لا يتجاوز اليوم عشرة ملايين نسمة في أفضل التقديرات الإحصائية في المنطقة التي تشمل مصر وإسرائيل والأراضي المحتلة في العام 1967 والأردن ولبنان وسوريا والعراق وإيران وتركيا<sup>2</sup> من مجمل السكان البالغ عددهم 237,308,000 نسمة<sup>3</sup> أي بنسبة 4,22% تقريبا.

ويدفعنا التاريخ إلى التساؤل، أيضا، أين هي القسطنطينية، وقد كانت تدعو إلى مجامع مسكونية؟ لقد تحوّلت إلى اسطنبول. وأين هي إنطاكية؟ والرّها؟ ونصيبين؟...

<sup>1</sup> "اليكسو"، أي "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم"، وهي تستند في توجهاتها إلى "ميثاق الوحدة الثقافية العربية". انضم لبنان إلى الأليكسو بالقانون رقم 29 تاريخ 1990/11/24 بتوقيع رئيس الجمهورية إلياس الهراوي ورئيس مجلس الوزراء سليم الحص. وفيما يلي بعض التعابير والنصوص الواردة في "الميثاق" وفي "دستور المنظمة". وهي تعبر بوضوح عن أهداف الميثاق والمنظمة:

- "الوحدة الثقافية العربية" (عنوان الميثاق وهدفه)
- "استجابة بالشعور بالوحدة الطبيعية بين أبناء الأمة العربية" (مقدمة الميثاق)
- "وحدة الفكر والثقافة هي الدعامة الأساسية التي تقوم عليها الوحدة العربية" (مقدمة الميثاق)
- "المجتمع العربي والقومية العربية" (مقدمة الميثاق)
- "الشخصية العربية" (مقدمة الميثاق)
- "الشخصية العربية" (مقدمة الميثاق)
- "تمكين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي" (المادة الأولى من الدستور)
- "تنشئة جيل عربي" (المادة الأولى من الميثاق)
- "رسم الفلسفة التربوية العربية" (المادة الأولى من الميثاق)
- "بث روح القومية العربية" (المادة الأولى من الميثاق)
- "تعيين أهداف التربية في جميع مراحل الدراسة" (المادة الأولى من الميثاق)
- "التعريف بالثقافة العربية الإسلامية" (المادة 15 من الميثاق)

(راجع: أنطوان نجم - الأليسكو: فلسفة وإشكالات - آفاق مشرقية (4) - الطبعة الأولى 1991 حيث النص الحرفي لـ"ميثاق

الوحدة الثقافية العربية" و"دستور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).

<sup>2</sup> Jean-Pierre Valognes - Vie et mort des Chrétiens d'Orient - Fayard - Paris, 1994, p838

مصر: 6500000، إسرائيل: 10000، الأراضي المحتلة: 50000، الأردن: 10000، لبنان: 1450000، سوريا: 90000، العراق: 600000، إيران: 200000، تركيا: 10000.

<sup>3</sup> Yves Lacoste - Dictionnaire géopolitique - Flammarion, Paris 1995

أما الأحداث المعاصرة، فقد عشناها في ما جرى في لبنان في العام 1958، وخصوصاً في الحروب التي توالى منذ نيسان 1975، وفي هجرة المسيحيين الكثيفة من إيران والعراق وسوريا وإسرائيل ولبنان والأراضي المحتلة. وعشناها في توقيع لبنان على الانضمام إلى الأليكو بتاريخ 24 تشرين الثاني 1990، وفي مرسوم التجنيس، وفي تركيبة الانتخابات النيابية وفي معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق...

وأهم ما يشغل البال ما نشرته جريدة "الفيغارو" الفرنسية في العام 1988 ونقلته جريدة "الأحرار" البيروتية، عن مقررات زعمت الجريدة الفرنسية أن مؤتمر الدول الإسلامية المنعقد في لاهور - باكستان في العام 1980 قد اتخذها من هذه المقررات البنّان السادس والسابع اللذان يدعوان إلى تصفية المسيحية في الشرق الأدنى وبدءاً من لبنان<sup>4</sup>.

أعلن السيد حبيب الشطي، الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، في حديث خاص لجريدة "الشرق الأوسط" في 16 تموز 1984 أن المنظمة سترفع دعوى ضد الجريدة الفرنسية لاختلافها هذا الخبر، وأن المحاكم الفرنسية تنتظر في هذه الدعوى مع حلول شهر تشرين الأول. وانقضى الشهر المذكور وسواه ولم يتم النظر في الدعوى. فهل قدّمت أم لا؟ لا نعرف. غير أن السيد الشطي كتب رداً مفصلاً بعث به إلى جريدة "الفيغارو". وفي ذيل رده نشرت الكاتبة "سوزان لبنان" رداً مختصراً أصرت فيه على أن الاجتماع عقد فعلاً وأن الأمين العام يتكلم على الموضوع بسبب انعقاد الاجتماع بسريّة تامة.

لا يوجد إثبات على اتخاذ مؤتمر لاهور مقررات بهذا المعنى. وأنا ميّال بقوة إلى عدم تصديق ما نشرته "الفيغارو"، جملة وتفصيلاً.

ولكن ما جرى على الأرض عندنا قبل مؤتمر لاهور وبعده إلى ماذا يدل؟ وما هي عبره؟ ودعوة القذافي المسيحيين إلى اعتناق الإسلام<sup>5</sup>، في أي إطار نضعها؟ وكيف نفهمها؟ والأموال الضخمة التي دفعها زعيم ليبيا وسواه من زعماء العرب والمسلمين خلال الحروب في لبنان للفلسطينيين والحركة المسماة وطنية، إلى ماذا كانت تهدف في حقيقة الأمر؟

إن ما أصابنا أوصلنا، في ما أوصلنا إليه، إلى نتيجتين مرعبتين، فضلاً على ما لحقنا من خسائر ودمار وموت.

الأولى، تهجير مسيحيين إلى خارج لبنان في عدد يزيد على نصف مليون نسمة. ممّا جعل التوازن اللبناني الداخلي المؤثر مختلاً. وزاد الاختلال مرسوم التجنيس المشؤوم.

<sup>4</sup> ج. خريش - حروب الآلهة - لبنان 84-85، إعداد المركز الكاثوليكي للإعلام ص96.

Suzanne Labin, in Le Figaro - Juillet 1984

في ما يلي نصّ البندين السادس والسابع من المقررات المزعومة كما وردت ترجمتها في جريدة "الأحرار":

البنّد السادس: يجب على الدول الإسلامية أن تتخذ الخطوات اللازمة لسحق المسيحيين والشعوب غير الإسلامية في الشرق الأدنى

وإجبارهم على اعتناق الإسلام قبل نهاية القرن.

البنّد السابع: إن الخطوات الكفيلة بتصفية المسيحية في الشرق الأدنى يجب أن تبدأ من لبنان وذلك بشراء أراضي المسيحيين وممتلكاتهم

من أجل الضغط عليهم ودفعهم إلى الهجرة باتجاه البلدان الغربية. فيتوجب على الدول العربية الغنية بالنفط أن تدعم مادياً هذه الجهود.

بينما تتولى سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ممارسة الارهاب ضد المسيحيين في لبنان.

<sup>5</sup> جريدة Le Matin de Paris - 24/01/1984

والثانية، إنعدام التمثيل المسيحيّ الصحيح على الأصعدة الرسمية على اختلافها.

وهاتان النتيجتان أفضتا إلى ما أطلق عليه تسمية "الإحباط"، وهو في الواقع قرفٌ مقرون بالخوف، والذي بدوره غدى ويغذي الهجرة ويؤيها، خصوصا هجرة الأدمغة، والذي من نتائجه أيضا أن قادة مسيحيين ومسؤولي مؤسسات رئيسية فقدوا مصداقيتهم لدى المسيحيين عموما. وجدلية "القرف-الخوف" و"الهجرة" تقويكلا من الحاليين بدفع أكبر وبوتيرة تصاعدية ما دامت مستمرتين.

لا نلوم مرتمر لاهور ولا نلوم أحدا بمقدار ما نلوم المسيحيين الذين الذين سدّدوا الطعنات إلى أبناء مجتمعهم.

هو مسيحيّ، الرئيس الياس الهرأوي، من وقع على انضمام لبنان إلى الأليكسو، وعلى مرسوم التجنيس، وعلى قانون الانتخابات النيابية... وهو مسيحيّ، السيد ميشيل إدّه، من كان مستعدّا لإلقاء نفسه أمام الدبابات السورية كي لا تبرح لبنان.

وهم مسيحيون من ساهموا في القبض على سمير ججع وحققوا معه وأحالوه إلى المحاكمة وحكموا عليه، وضربوا "القوات اللبنانية" واضطهدوا أعضاءها وبعثروهم.

وهم مسيحيون من اعتدوا على بطريك الموارنة.  
وهو مسيحيّ، الأب ميشيل لولون (مسؤول سابق في لجان العلاقات الإسلامية المسيحية في الفاتيكان وفرنسا) من يقول: "خير لي أن أرى المسيحيّ اللبناني يموت من أن أراه يقتل قريبه حفاظا على بقائه"<sup>6</sup>.

وهم مسيحيون، مطارنة وكهنة، موارنة وروما كاثوليك وروما أرثوذكس، من افتروا على المقاومة اللبنانية المسيحية منذ بدايتها، فشوّوها بنعوت شتى، وبعضهم لأسباب نخجل من ذكرها.

وهم مسيحيون من لم يبألوا في لقاءات الكسليك في مطلع الحرب، باقتراح إنشاء مؤسسة تعنى بشراء الأراضي التي يطرحها مسيحيون للبيع وبإعادة بيعها من مسيحيين.

وهم مسيحيون، وفي أعلى درجات المسؤولية الكهنوتية، من لم يبألوا بموضوع الأليكسو ولم يحركوا ساكنا يوم أطلعتهم عليه وبيّنت لهم أخطاره.  
وهم مسيحيون من كانوا يتهربون دوما من تمويل أي مشروع يرمي إلى إنشاء مركز مسيحيّ للتوثيق والأبحاث والنشر...

هذا قليل من كثير. وفي هؤلاء وأمثالهم يصحّ قول الشاعر:  
وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهندّ

إذا كنت أشدّد في كلامي على الواقع المسيحيّ وعلى وضع المسيحيين في لبنان، فلأن لبنان قلب المسألة وروحها وحصنها. في ضوء هذا نفهم أن يرى مؤتمر لاهور – إذا كان الخبر صحيحا، لا سمح الله – أن يُبدأ بلبنان لتصفية المسيحية في

الشرق الأدنى. ونفهم أيضا المسيحي الكبير الدكتور شارل مالك عندما يقول: "إذا سقطت المسيحية الحرّة في لبنان - ولبنان آخر معقل لها في المشرق - انتهى أمرها في الشرق الأوسط كله، بل في آسية وإفريقية"<sup>7</sup>.

وأوجز خلاصة الوضع الخطير ببندين أساسيين، فضلا على بنود أخرى. البند الأول، أن النمو الديموغرافي الإسلامي في لبنان سيؤول، أو آل، مع انخفاض الولادات عند المسيحيين وهجرتهم الكثيفة، إلى جعل المسيحيين المقيمين فعلا على الأرض اللبنانية أقلية. فعدد من المصادر الجديّة يلتقي على اعتبار اللبنانيين الموجودين على الأراضي اللبنانية صاروا بنسبة 63,5% للمسلمين و36,5% للمسيحيين<sup>8</sup>. هذا قبل مرسوم التجنيس. إلا أن النسبة تعود فتتعدّل لصالح المسيحيين إذا عاد المهاجرون الذين تركوا الوطن ما بين 1975 و1990، وعددهم يربو على النصف مليون نسمة، على ما أشرت.

وكان محمد جميل بيهم، وهو من كبار المثقفين المسلمين، وأكن له كثيرا من الاحترام، قد تنبأ بمقال له في العام 1936، أن يوما سيأتي يصبح فيه المسلمون أكثرية في لبنان، والمسيحيون أقلية، لأن "أحوال المسلمين الشخصية وإقبالهم على الزواج تكفلان لهم عمّا قريب أكثرية عددية، ولكما مرّ الزمن إزدادوا كثرة ولا سيّما أنهم أقلّ من سواهم ميلا إلى الهجرة"<sup>9</sup>. وأضاف إن هذا ما سيكون من أسباب "عودة" لبنان في المستقبل القريب إلى الوحدة السورية.

وكان الرئيس الشيخ بشير الجميلّ واعيا خطورة فقدان التوازن الديموغرافي. فأسرّ إليّ بعدما انتخب رئيسا للجمهورية في العام 1982، أن في رأس برنامجه للعام 1983 استعادة نصف مليون مسيحي مغترب.

وفي تاريخ لبنان في القرن الماضي ما يوضح أهمية الديموغرافيا في الأوضاع السياسية. فالمشاكل في الشوف بين الموارد والدرّوز سببها الجوهرية نمو الموارد عدديا وتحسّن أوضاعهم الاقتصادية والثقافية، بحيث مالوا إلى العمل لتغييرات في الأوضاع السياسية والإدارية في الشوف تواكب المتغيّرات الحاصلة، فكان الصدام. أما الأحداث التي تذكرها الكتب أسبابا مفجّرة بين الجماعتين، فكانت ثانوية، وبعضها سخيلا وتافها.

في رأيي أن إيقاف هجرة المسيحيين ينبغي أن يأتي في رأس الأوليات من اهتمام قادتنا. وقد كتبتُ في "رسالة إلى المسيحيين" في العام 1992 "إن النزيف البشري الذي يضرب مجتمعنا المسيحي كله كفيل بإضعافه حتى الزوال. الوضع مقلق. والنتيجة بحجم الكارثة. فحذار!<sup>10</sup>"

<sup>7</sup> شارل مالك - الكثير المطلوب - مجلة "الفصول اللبنانية" العدد رقم 3 - صيف 1980 - ص25

<sup>8</sup> 638 - 637 Vie et mort des Chrétiens d'Orient

يقدر المؤلف عدد اللبنانيين المسيحيين في الحال التقاولية بـ1425000، أي أقل بـ25000 من تقدير Yves Lacoste وهم موزعون على النحو التالي: موارنة 750000، روم أرثوذكس: 250000، روم كاثوليك: 200000، أرمن أرثوذكس: 120000، طوائف مسيحية أخرى: 75000.

<sup>9</sup> محمد جميل بيهم في أحد ردوده على مقالات ريف أبي اللع في جريدة "بيروت" لصاحبها حي الدين النصولي، في 5 و11 و15 و16 و18 أيلول 1936 - ص1.

<sup>10</sup> أنطوان نجم - رسالة إلى المسيحيين - أفاق مشرقية (5) ط1 - 1992 - ص53.

وفي "عهد وإيمان"، وهو نصّ من صفحة واحدة وضعته في العام 1995، وتوزّع منه خمسة آلاف نسخة، كتبت: "أعد بأني على هذه الأرض باق. لن أهملها، لن أهرها، لن أبيعها مهما قست الأيام وأمعت في جورها". وقد أقسمت على أن أفي بالوعد. ووقعت على العهد. وأتمنى لو يقسم المسيحيون جميعهم هذا القسم ويوقعوا على هذا العهد.

إن موضوع الأكرية والأقلية ما كان بذى بال عند المسيحيين لولا خطر الذمّة الذي يتهدهم والذي يُعلن صراحة نظاما اجتماعيا - سياسيا لـ "أهل الكتاب". ولا يزال يرّ في آذاننا قول الشيخ حسن نصرالله، الأمين العام لحزب الله: "لبنان وهذه المنطقة هي للإسلام والمسلمين. ويجب أن يحكمها الإسلام والمسلمون"<sup>11</sup>.

خطر الذمّة كان دافع المسيحيين إلى استنباط صيغة 1943 وإلى الوقوف بحزم وصلابة في وجه أي دعوة إلى دخول الدولة اللبنانية الوحدة العربية، جزئية كانت أم كلية، وفي وجه أي سعي لإلغاء النظام الطائفي السياسي واعتماد الديموقراطية العديدة.

خطر الذمّة إياه كان دافعي، واليوم أكثر من أي وقت مضى، للمناداة بنظام الفدرالية في لبنان. وحده هذا النظام قادر على نقل العيش المشترك عندنا من التصادم إلى التآلف، ملغيا عددا كبيرا من عوامل الصراع والتفجير، مؤمنا بقاء لبنان في كيانه الجغرافي القائم ومحققا الاستقرار المنشود<sup>12</sup>، بشرط أن يتم التحول باقتناع لبناني عام وقبول عربي مسبق صريح. وكلّ نظام لا يقوم على قاعدتي الحرية والاقتناع سيفشل حتما، وربما يسبّب من المآسي أكثر ممّا يعالج من قضايا. ولا بدّ من أن أشير إلى أن من إيجابيات الفدرالية أيضا، أنها تحصر قيادة المسيحيين وتمثيلهم والنطق باسمهم بممثلين حقيقيين لهم، منبثقين من صفوفهم ومعبرين عن وجدانهم تعبيرا صحيحا. وكذلك يكون الحال بالنسبة إلى المسلمين.

وفي المناسبة، مرّة واحدة فقط لم أؤيد فيها السيد البطريرك الماروني في موافقه. لم أؤيده في اعتراضه على ملحق التجنيس لسببين: الأول، أن ما من قوّة ستسمح في التوازن القائم بسحب الجنسية من المجنّسين الجدد، أيا كانت الأخطاء القانونية، شكلا ومضمونا، التي رافقت وضع مرسوم التجنيس وصدوره. والسبب الثاني، أن الملحق العتيد كان سبيلا لتجنيس من يمكن تجنيسه من المسيحيين المشرقيين. فبدلا من أن يهاجر هؤلاء إلى الأصقاع الأوروبية والأميركية والاورسترالية ويزدوبوا فيها، يأتون إلى لبنان ويستقرون فيه، فيبقون في الشرق، ويربحهم لبنان، فيقوّوا به ويقوّى بهم.

ويتعلق السبب الثاني بخصوصية المسيحيين الثقافية.

تكلم قداسة البابا يوحنا بولس الثاني غير مرّة على أهمية الثقافة، وهو القائل: "أنا ابن أمة... حافظت على سيادتها الوطنية على الرغم من كل ما تعرّضت له من

<sup>11</sup> جريدة "السمير" البيروتية - 12 تموز 1987.

<sup>12</sup> دولة لبنان الاتحادية أو دولة التنمية والعدالة والتعايش التآلفي (مشروع للبحث والمناقشة) - إعداد أنطوان نجم ولجنة من الباحثين - العام 1990 (175 صفحة من القطع الكبير) (صوّر منه عدد قليل من النسخ على الآلة الناسخة).

الخارج من تقسيم واحتلال، معتمدة لا على طاقات القوة المادية بل على ثقافتها فقط. وقد تبين أن هذه الثقافة كانت أكبر من كل قوة سواها<sup>13</sup>.  
والربط المحكم بين الدين والثقافة ورد في "النداء الأخير" وفي الإرشاد الرسولي "رجاء جديد للبنان".  
جاء في الفقرة 19 من "النداء الأخير": إن كل دين يعبر عن ذاته ثقافيا لأنه متجسد.

ونص الإرشاد الرسولي على "احترام تقاليد (المسيحيين) الثقافية والروحية" (الفقرة 17)، وعلى "أمانة (كل واحد) لتقاليد الروحية والثقافية..." (الفقرة 95)، وعلى "أناس متباينين على الصعيد الثقافي والديني..." (الفقرة 119) ...  
وكانت الأونيسكو قد عرّفت "الثقافة" بأنها "مجموع السمات المميزة، الروحية والمادية، العقلية والعاطفية، التي يتّصف بها مجتمع أو مجموعة اجتماعية. إنها تشمل، إلى جانب الفنون والآداب، أنماط الحياة والحقوق الأساسية للكائن البشري وأنظمة القيم والتقاليد والمعتقدات"<sup>14</sup>.

إن الفروق بين المسيحيين والمسلمين في لبنان ليست في لون البشرة أو في الشكل أو في اللغة أو في الأصل أو في العرق أو في الذكاء أو في العلم والجهل أو في التقدم والتأخر أو في الغنى والفقير، أو ما سوى ذلك مما لا يخطر على بال عاقل...

إن ما يمايزهم عائد إلى انتماءاتهم الدينية التي تحمل في ذاتها مفاهيم متغايرة تنعكس على التنظيم السياسي والاجتماعي وعلى الثقافة المجتمعية، بالمعنى الذي تعطيه الأونيسكو، وخصوصا بالنسبة إلى المسلمين، لأن الإسلام نظام كامل شامل تتدرج فيه شؤون الفرد والجماعة، وأمور الدنيا والآخرة، ومسائل الجسد والروح، والنظام العام والحياة الشخصية وقضايا الأخلاق والقيم، وأحكام كل مخلوق وعلاقته بالنظام الكوني. والتغاير لا يتضمن على الإطلاق تقييما تفضليا.

وقد لاحظ الدكتور جورج قرم هذا التغاير العميق، فاعتبر "أن الثقافة المارونية مركزة على الذات ومجذرة في الجبل اللبناني مع تاريخ طويل من الانفتاح غير التصارعي مع الغرب. بينما هذا الوضع لا ينطبق على الثقافة السنّية أو الشيعية. فهي مرتبطة بجذورها بمراكز الثقافة الإسلامية الكبرى في القاهرة أو دمشق بالنسبة إلى السنّة، وإيران والعراق بالنسبة إلى الشيعة. أما انفتاحها الحديث على الثقافة الغربية فصراعي يتكوّن من انجذابات وتدفعات متواترة"<sup>15</sup>.

فالحفاظ على ثقافتنا وإغناؤها وتغذيتها على نحو دائم ضمانة لاستمرار ذاتيتنا وللقاء المواطنين الآخرين على قدم المساواة، والالتقاء معهم على كل ما يهمنّا جميعا بغية أن نرتقي بالعيش المشترك إلى المؤلفة. وأهم وسيلة تحقق هذا الهدف هو التربية في الحقول على اختلافها في ظل الفردالية. لذلك عجبت كثيرا وحرزنت حزنا كبيرا من صمت المعنّيين المسيحيين عن موضوع انضمام لبنان إلى الأليسكو، لا بل سباتهم. وهم لا يزالون غارقين في هذا السبات.

<sup>13</sup> النداء الأخير - الفقرة 13.

<sup>14</sup> يزيميات سينودس الأساقفة من أجل لبنان - المركز الكاثوليكي للإعلام - 1966 - ص 66.

<sup>15</sup> Vie et mort des Chrétiens d'Orient - p637



لقد تمكن المسيحيون، تاريخيا، من الحفاظ على ذاتيتهم لأنهم تولوا بأنفسهم تربية أولادهم وتعليمهم وأمر تثقيف مجتمعهم. فهذا درس ينبغي أن نفيده منه. وما أطلبه لنا أطلبه لسوانا، أيضا، وعلى المستوى نفسه من المساواة.

## مشروع حلّ

إذا كان الواقع الوجوديّ المسيحي في لبنان في مطلع الألف الثالث للميلاد هو ما عليه من اسوداد، فهل من أمل في إصلاح الأمور والنظر بتفاؤل إلى المستقبل؟ كان الدكتور شارل مالك قد أعطاني جوابا مسبقا يتسامى على العقل البشري. كان ذلك في إحدى ليالي العمل معا في دارته في الرابية في زمن القصف من العام 1981. وكان الوقت قد تخطى الساعة الثانية صباحا.

قام الدكتور مالك فجأة من مقعده ووجه كلامه إليّ بصوت جهوريّ قائلاً: هل تعلم أنكم، أنتم المواردنة، لستم "أوادم"؟  
قلت: خير إن شاء الله؟

قال: لستم أوادم. ولكن لا تخافوا. إن الله لن يترككم. قد يقاصصكم ويقسو عليكم. ولكن لا تخافوا. فكما كان الرب يضرب شعبه المختار ليربّيه ويعيده إلى صوابه مع محافظته عليه وحمايته له من الفناء ليحقق بواسطته وعده، كذلك هو يحافظ عليكم ويحميكم، ولكنه يربيكم أيضا ويجعلكم تدفعون ثمن خطاياكم.

قلت، مع شيء من الابتسامة: إذا تصرف الربّ مع شعبه على هذا النحو وأبقاه، فلماذا يأتي المسيح المنتظر. أما نحن فأبيّ مسيح سيخرج منا؟

قال: لا تسخر. أنت تعرف التاريخ. ألم تلاحظ أن الطوائف المسيحية المشرقية كلها تقلصت عددا وانتشارا جغرافيا باستثناء المواردنة؟ ألم تلاحظ أن المواردنة وحدهم نموا عددا وتمددوا جغرافيا على رغم ما جرى لهم من ويلات، حتى إنهم أسسوا دولة لبنان الكبير وأصبحوا فيها المسؤولين الأولين؟

قلت: بلى، وماذا يعني ذلك؟

قال: إن الله يريد أن يحقق بواسطتكم أمرا هاما جدا. وأنتم وحدكم قادرين على تحقيقه.

قلت (وقد أخذني العجب والاضطراب): ما هو هذا الأمر الهام جدا؟

قال: لست أدري. لم أعط موهبة الاطلاع على نيات الرب. ولكن المهمة مصيرية.

هنا، دخلت معه في جدال. وأفهمته إما إنه يتسلى بي ويسخر مني، وإما إن رؤيا أو إلهاما ما دفعه إلى اعتقاد ما يعتقد. ولما أصرّ على عدم الإجابة، قلت له: أنا باق هنا، في هذه الغرفة إلى ما شاء الله. ولن أبرحها قبل أن تنتقل إليّ ما جال في خاطرك في هذا الشأن.

ولما رأني حازما في موقفني ومصرا عليه، قال: سأقوله لك. إن الله أبقى المواردنة وأنماهم ووسع آفاق وجودهم لأنه سيُدخل يهود إسرائيل في الدين المسيحي

بواسطتهم. هناك ملاءمة لغوية ومشرقية بين اليهود والموارنة. لذلك سيصير اليهود مسيحيين عن طريقهم.

سكتُ مشدوها. ولم أستطع التعليق على ما قاله. إنه أمر يتخطاني إلى ما لا نهاية. ولكنني فهمت فجأة ما كان يقصده الدكتور مالك في إحدى رائعاته المنشورة في مجلة "الفصول اللبنانية". وفور عودتي إلى البيت، راجعتُ العدد المعني من المجلة. وقرأت المقالة المطوّلة ذات العنوان المثير: "الكثير المطلوب". وإليك بعض ما جاء فيها<sup>16</sup>:

"الأرامية... لغة وحضارة، جب نهلت منه العبرانية والعربية في أن. الأرامية خلفية من خلفيات هاتين اللغتين والحضارتين، بينما لا العبرانية ولا العربية تشكل خلفية للأرامية بنفس المعنى. والموارنة اليوم هم الورثة الأحياء الأحرار لهذه الخلفية.

"من يدري، إذن، ما هي إرادة العناية بشأن تطور علاقتهم مع العرب واليهود؟ القربى السامية الأساسية بين الموارنة والعرب واليهود قد يكون لها، في تدبير العناية، أثر مصيري في تطور هذه المنطقة المأهولة بالشعوب الثلاثة والحضارات الثلاث. قلنا إن سرا يكمن في مجرد وجود المارونية، وقد يكون مفتاح هذا السرّ هذا الأثر المصيري بالذات. لا يدري هذا السرّ غير الله. بكل تأكيد لا يدريه الموارنة في كماله بعد ولا يدريه أحد في لبنان أو خارج لبنان" (ص30).

ويضيف الدكتور مالك:

"إذا وُجد الله ووُجدت معه عنايته بكل شيء في الوجود، بما في ذلك وقبل كل شيء بالإنسان ومصيره، أليس معقولاً، بل منتظراً، أن يكون لبقاء الموارنة، بتراتهم الأرامي العريق، مغزى أزلّي في هذه الأونة بالذات، في هذه البقعة بالذات، حيث يحيي اليهود تراثهم وحياتهم وذاتيتهم المستقلة..."(30).

ويضيف أيضاً:

"ماذا تعدّ العناية لهم (للموارنة) بعد من جرّاء الآلام والتجارب والمحن التي يجتازون؟ إذا تأملنا، بضوء الإيمان، حقيقة كلّ هذه العطايا العشر، وما قد تضمّر في طبيعتها من تحديات آتية، لذهلنا من الإمكانيات التي قد يكون المستقبل حبلانا بها، للموارنة وللبنان"(ص32).

ويقول الدكتور مالك في تلخيصه "الكثير المطلوب" من الموارنة:

"5"- التأكيد من أن لوجود الموارنة وبقائهم مغزى وسرا عجيبيين، وتلمّس هذا السرّ بتطلع وشغف.

"6"- التأكيد من أن هذا السرّ الدفين لا ينكفئ على لبنان فحسب، بل يتعداه إلى أبعد وأعمق منه بكثير" (ص34).

لا بد بادىء ذي بدء من التنبيه إلى أن كلام الدكتور مالك – وهو من هو في عالم المسيحية الأرثوذكسية – لا يعني البتّة أن المسيحية محصورة في المارونية، أو أن الموارنة "وحدهم مالكو المسيحية وأن مسيحية غيرهم ناقصة أو زائفة"<sup>17</sup>. إنه أمر

<sup>16</sup> شارل مالك – الكثير المطلوب – مجلة "الفصول اللبنانية" العدد رقم 3 – صيف 1980 – ص25

<sup>17</sup> شارل مالك – الكثير المطلوب – مجلة "الفصول اللبنانية" العدد رقم 3 – صيف 1980 – ص25.

لا ينبغي أن يداخله أدنى ريب أو يخالطه أي شك. وإذا رأى الدكتور مالك أن "الموارنة هم المسؤولون عنها (عن المسيحية الحرّة) أمام العناية الإلهية"<sup>18</sup>، فانطلاقاً، في رأيه، من المعطيات الموضوعية القائمة التي ترتب عليهم "الكثير المطلوب منهم بالذات"<sup>19</sup> في حدود "الكثير المعطى لهم"<sup>20</sup>. ثم ليس المجال هنا أن يُقيم ما ذهب إليه الدكتور مالك في رؤياه (؟). فضلاً على أنه لشرف ومسؤولية لا يماثلهما شرف ومسؤولية أن يخصّ الرب أحداً - وإن من دون جدارة - بدور في مخطّطه الإلهي. وأصلي بحرارة أن يُفهم ما يرمي إليه الدكتور مالك على حقيقته فلا تأوّلّه النيات السّود تأويلاً شيطانياً.

في كل الأحوال، وأياً كان الاعتبار، لا يجوز أن نضع خطة سياسية تدخلها اعتبارات متسامية من هذا النوع، تتخطى العقل وتخرج عن الإرادة الإنسانية. علينا أن نستنير بنور العقل والمعطيات المتيسّرة وتلك المرتقبة إلى حدّ ما، لاستشفاف الآتي وفهمه من دون أن تفترض أي تناقض بين الإستسلام العميق للرّب ومشينته والفعل المنهجي العقلانيّ في تسيير شؤون الحياة وفي تطويرها. إن ما يعنيننا، في توجّهنا هنا، هو صيانة الوجود المسيحيّ الشخصي والمجتمعي، زماناً ومكاناً، أي مسيرة مسيحيّ لبنان الأرضية، من دون أن نهمل المسيرة نحو السماء والتي، وإن تبدأ على الأرض، لها مقتضيات خاصة بها.

فإذا شئتم، أنقل إليكم وجهة نظري في ما يمكن أن يُخرج المسيحيين من محنتهم التي تهدّد مصيرهم، ويُنهضهم ويُجذّر وجودهم.

وجهة نظري هذه تقوم على اقتراح بسيط ذي ركائز ثلاث:

- تحديد الغاية.
- تحديد الهدف (والمقصود به المرمى المباشر (l'objectif direct)).
- تعيين المؤهل للقيام بالمهمة.

1- الغاية: تحصين ما تبقى من وجود مسيحيّ في لبنان على الأصعدة كلها.

2- الهدف: إقامة دولة فدرالية في لبنان.

3- المؤهل للقيام بالمهمة: السيّد بطريرك الموارنة.

وحده بطريرك الموارنة، في الواقع القائم، قادر على قيادة خطة وتنفيذها بغية إقناع العقل الغربي بأن مسألة الوجود المسيحيّ في لبنان وجوداً حراً، حياً، فاعلاً، دينامياً، جزء من مسألة الحرّية في العالم، وبالتالي، من مسألة حقوق الإنسان. فإذا اقتنع الغرب سهّل تحقيق الهدف.

أسوق هذا الرأي لاقتناعي بأن مسيحيّ الشرق لم يحصلوا في العصور الحديثة والمعاصرة على أي حق لولا تدخل القادرين في العالم الغربي، بما فيه روسيا. هذه ثابتة. وهي باقية حتى اليوم.

<sup>18</sup> المرجع السابق.

<sup>19</sup> المرجع السابق - ص 24.

<sup>20</sup> المرجع السابق.

وأذكر أنني والشيخ بشير الجميل كنا في منزلي ليلة السبت الأسود في أواخر صيف 1975، نندرس ما جرى من أحداث، ونفكر في ما يمكن أن ينقذنا ممّا نحن فيه.

قلت لبشير: في الحياة العلمية، وخلافاً لما تعلمناه في الهندسة الرياضية (la géométrie)، إن أقرب بين نقطتين ليس دائماً خطأ مستقيماً. فأقرب طريق بين الجميزة (التعبير المكانيّ يومئذ عن الوجود المسيحيّ) والبسطة (التعبير المكانيّ يومئذ عن الوجود الإسلامي) ليس ذلك الذي يوصل بينهما مباشرة، بل هو الذي يمرّ بدمشق أو بغداد أو الرياض أو القاهرة، أو أيّ عاصمة عربية مؤثرة. فأمر تبغيه من اللبنانيين المسلمين أطلبه من هذه العواصم. فإذا شأنتك. هذا ما جرى في العام 1943، إذ لم يكن المسلمون ليقبلوا بالاستقلال اللبناني على أساس صيغة 43 لو لم يتدخل الزعيم السوري شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية في ما بعد، ورئيس الوزراء المصري مصطفى النحاس باشا. وفي العام 1958، لم يكن اللبنانيون المسلمون ليقبلوا بإنهاء الأحداث على النحو الذي انتهت إليه لولا تدخل الرئيس جمال عبد الناصر تدخلاً مباشراً.

فإذا شئت أن تلبّيك العواصم العربية، عليك أن تدق باب واشنطن. فأقرب طريق بين بيروت والعواصم العربية هو الذي يمر بواشنطن. وللوصول إلى واشنطن عليك أن تستعين بمن هو قادر على ذلك. وهذا ما قام به الشيخ بشير فعلاً. وتأكّدت هذه النظرية مرّة جديدة في ما بعد في اتفاق الطائف. إذ لم يقبل اللبنانيون المسلمون به لو لم تتعهده الولايات المتحدة الأميركية وتبعث به عن طريق العرب الممثلين في اللجنة الثلاثية العربية العليا.

فإمكان قبول اللبنانيين المسلمين بالفدرالية وارد إذا أقنعنا بها الولايات المتحدة الأميركية. فهي طريقنا إلى الدول العربية. والدول العربية طريقنا إلى اللبنانيين المسلمين. مع العلم أن فكرة الفدرالية بدأت تلقى بعض التجاوب في أوساط إسلامية مثقفة. ومثاله المقال الرائع الذي كتبه الصحفي جهاد الزين في جريدة "السفير" البيروتية بتاريخ 18 تشرين الثاني 1982، ويؤكد فيه أن خلاص لبنان لا يتم إلا بالتخلي عن فكرة الوحدة الاندماجية الانصهارية في ما بين طوائفه واعتماد فكرة التعددية.

إن اقتراحي بسيط وعمليّ. إلا أنه مرتبط بقرار السيّد البطيرك. فهل سيقبل المهمة إذا طُرحت عليه وكان مقتنعاً بها؟ لست أدري. هو وحده يعرف قدراته، ووحده يستشف ما يشجعه على قبول مهمة ما أو يثنيه عنها.

المهم ألا يقول الرب في أحد منا ما قاله سيّد العبد لعبدته الذي دفن وزنته: "أخرجوا هذا العبد الذي لا نفع منه واقذفوا به في الظلمة البرانيّة حيث البكاء وصريف الأسنان" (متى 25/30، 28).

أنطوان نجم